الثورة الفرنسية...العالم يتغير

- الإرهاصات
- سنوات الضياع
- عصر التنوير
- مجنون جنيف
- الموسوعة
- الشرارة الأولى
- انتصار ...الإقطاع!
- مجلس طبقات الأمة
- الجمعية الوطنية
- وقفة ميرابو
- كرة النار
- اندلاع الثورة
- سقوط الباستيل
- وتحرك الملك
- حزب فلول النظام
- انتصار الثورة
- مظاهرة النساء
- فرار الملك
- وطن في خطر
- إعدام الملك
- التحالف الدولي
- عهد الإرهاب
- دكتاتورية الخلاص

obeikandi.com

وسط ظلم الإقطاع وجبروت الكنيسة وتسلط الملك، خرجت صرخة حق وسط ظلام الملكية الأوروبية تطالب بحياة كريمة لكل البشر، سلاحها الحرية للناس والاخاء بين الأمم والمساواة بين البشر. فكانت الثورة الفرنسية عظيمة في خطواتها ومبادئها عظيمة في أخطاءها فكانت من أعظم دروس التاريخ، فرغم انقضاء أكثر من قرنين على أحداثها ورغم اختلاف الظروف تبدو الثورة الفرنسية في مخيلة الكثير من ثوار العرب في يومنا هذا، فالتشابه الذي يتجاوز مجرد المحاكاة والأفعال الغبية للسلطة واعوانها التي أدت إلى تأجيج مشاعر الثوار وشحن بطارية الثورة، وصرخة الشعب ضد الظلم، كانت كلها مظاهر هنا وهناك سواء، والبحث عن حياة كريمة لشعوب مطحونة جعل الثورات الفرنسية من قبل والعربية الآن عفوية عفية، لذلك كان فتح ملف الثورة الفرنسية بضجيجها وصخبها ضرورة.

كان ان رفع الشعب صوته وأرتفع هدير الثورة يحطم امامه كل أصنام النظام الفرنسي وسدنته، وخرجت إلى النور مبادئ الحرية والآخاء والمساواة تنير ظلمات أوربا الملكية التي تحكم فيها سلالات ملكية بموجب تفويض إلهي لا تسأل عما تفعل وهم يسألون.

فعلى الرغم من أن الثورة الإنجليزية أسبق ونتائجها أبقى إلا ان الثورة الفرنسية هي التي ترتبط في الأذهان وهي الأم الشرعية لكل الثورات التي بعدها فمن نبعها نهل الثوار ومن معينها تزود المتظاهرين بخطط لمواجهة قمع السلطة.

مخطئ من يظن أن الثورة الفرنسية جاءت اعتباطا وتفجرت أحداثها في شهر يوليو من علم ١٧٨٩م ، جراء الشعور بالظلم والفقر والهزيمة من ضياع مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار، فالكثير من الأمم تشعر بالفقر فلا تثور، واخرى يقهرها الظلم فلا تغضب، وفرنسا لم تكن مختلفة عن غيرها من الامم الاوروبية آنذاك في مظاهر الظلم والفقر للشعوب في ظل سفه الحكام والامراء، لكن ما غير المشهد الفرنسي ودفع الشعب إلى الثورة كان كتيبة من ألمع العقول الفرنسية في كل المجالات الفكرية والفلسفية قادوا النهضة الأوروبية الثانية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي. وأستطاعت هذه الكتيبة التي ضمت موليير وفولتير وروسو ومونتيسكو ودريدور

وغيرهم كثيرين في أنارة عقول الفرنسيين ومن خلفهم بقية الشعوب الأوروبية وبشروا بقيم جديدة تعلي من قيم الإنسان المهمش والمطحون أمام قهر الظروف الإقتصادية وجبروت الملوك أنصاف الآلهة والكنيسة البطريركية التي كانت تبيع الإيمان بالمال.

فكيف حرثت الأرض الفرنسية لاستقبال بذرة الثورة؟ وكيف جاءت كتابات فرسان النهضة عاملا رئيسيا في التمهيد للثورة؟ بل وكيف ساعد الوضع الدولي في التمهيد للثورة الفرنسية وجعلها ممكنة؟. في السطور القادمة نتعرف سويا على بانوراما فرنسا وأوروبا قبل أن ندخل في أتون الثورة المشتعل واحداثها المتلاحقة التي رغم مرور مائتي عام لم تفقد سخونتها، ورغم كثرة ما كتب عنها لم تفقد جدتها.

الإرهاصات

دخلت فرنسا القرن الثامن عشر الميلادي تحت حكم أسرة البوربون التي وصلت إلى عرش فرنسا في عام ١٥٨٩م، وهي الأسرة المعروفة بميولها التوسعية داخل أوروبا ورغبتها في تحقيق أرتقاء العرش الفرنسي على جميع النظم السياسية في أوروبا بإعتباره أكبر قوة سياسية، لذلك تعدد حروب فرنسا داخل أوروبا في ظل حكم البوربون. ففي بداية القرن السابع عشر الميلادي أنغمس ملك فرنسا لويس الرابع عشر المعروف باسم الملك الشمس، في حروب أوروبية قاسية لتحديد وريث العرش الأسباني بعد وفاة ملك أسبانيا كارلوس الثاني وهي الحرب التي استمرت لاربعة عشر عاما (١٧٠١-١٧١٤م) خرجت منها فرنسا شبه مهزومة، فقد أقرت دول أوروبا مرشح فرنسا فيليب الخامس (حفيد لويس الرابع عشر) بعد أن تنازل عن حقه في المطالبة بعرش فرنسا، ما يعني عدم توحيد فرنسا وأسبانيا تحت عرش واحد كما كان يطمح لويس الرابع عشر.

لم تهدأ الأجواء في سماء أوروبا المشتعل دائما بنيران الصراعات والتحالفات التي ما تكاد تبرم حتى تفك وتعقد تحالفات جديدة مضادة، فقد بدأت نذر الحرب تتجمع من جديد في أوروبا بعد وفاة إمبراطور النمسا تشارلز السادس دون أن ينجب ذكرا فتولت العرش ماريا تيريزا (١٧١٧-١٧٨٠م) وهو ما أدى إلى إندلاع حرب أوروبية

شرسة على أحقيتها في العرش وهي الحرب التي شاركت فيها فرنسا بثقله طوال سنوات الحرب (١٧٤٠-١٧٤٨م) وهي الحرب التي هزمت فيها فرنسا معنويا بعد تدخل انجلترا لجانب النمسا وأنسحاب بروسيا من الحرب. وهي الحرب التي كشفت أمام صناع القرار في فرنسا ان انجلترا أصبحت هي العدو الرئيسي الذي يجب التعامل معه لضمان التفوق الأوروبي، لذلك لم يكن غريبا أن تبدأ فرنسا في الاستعداد للجولة القادمة من الحرب التي أملت أن تسترد من خلالها كرامتها المهدرة في الساحة الأوروبية.

لذلك حين وافت سنة ١٧٥٦ كانت أوربا قد عرفت ثمانية أعوام من السلم الوهمي ، فحرب الوراثة النمساوية لم تحسم شيئاً في نظر الساسة الأوروبيين، فقد تركت النمسا قلقة في بوهيميا وإيطاليا، وبروسيا قلقة في سيليزيا، وبريطانيا قلقة في هانوفر، وفرنسا قلقة في الهند، وأمريكا، وعلى الرين. ولم تحقق معاهدة إكس لاشابل (١٧٤٨) تسوية للأراضي يمكن أن تقارن في ثباتها بالتسوية التي حققتها معاهدة وستفاليا (١٦٤٨م) قبل قرن من الزمان. فالقواعد القديمة للعبة السياسية في أوربا قد تغيرت فقد ظهرت بروسيا كقوة فتية في عالم الجرمان، ونمى الجيش الروسي فأضحى الأكبر في العالم، وورثت انجلترا الامبراطوريات البحرية البرتغالية والاسبانية والهولندية، وتغذت الروح القومية الصاعدة في إنجلترا على أرباح التجارة وفرصها، وفي بروسيا على الحرب الظافرة، وفي فرنسا على تفوق ثقافي يشعر شعوراً غير مريح بالاضمحلال العسكري. وكان الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية قد انتهى إلى مأزق، فترقب الطرفان تحولاً في الحظ ليجددا حرب الثلاثين، طمعاً في الاستيلاء على الروح الأوربية.

واندلعت الحرب...حرب شرسة على كل الجبهات كانت فرنسا على رأس معسكر ضم دول النمسا وروسيا والسويد في حين تحالفت انجلترا وبروسيا (ألمانيا فيما بعد) ودارت رحاها في ساحات أوروبا وأمريكا والهند على مدار سنوات سبع (١٧٥٦-١٧٦٣م). أنتهت الحرب بكارثة على فرنسا فقد فقدت مستعمراتها فيما وراء البحار في أمريكا والهند لصالح عدوتها اللدود أنجلترا، ودشنت بروسيا كقوة رئيسية في

أوروبا على حساب فرنسا، فيما شهدت فرنسا الراكعة صعود أنجلترا كقوة استعمارية عظمى.

سنوات الضياع

خرجت فرنسا من حروبها المتتالية جريحة فاقدة لكبريائها، جيوشها مرهقة، وخزائنها خاوية، وبحريتها بادئة، وشعبها طحنته الحروب المتواصلة والفقر المدقع، وأصبحت البلاد على بعد خطوة واحدة من الإنهيار التام.

كان التجوال بين القرى الفرنسية يجعل القشعريرة تتسلل إلى بدن المرء فمظاهر البؤس والفقر كنت في كل مكان فالدولة قريبة من الافلاس والملك لويس السادس عشر خاضع لزوجته ماريت أنطونيت في بذخ الحفلات الصاخبة يتصامم عن صراخات شعبه ويتعامى عن فقراء القرى الذين هجروا الريف وجاؤا إلى المدينة، والفقر في ركابهم.

لم يستقبل الملك الفرنسي رعاياه بل استقبلتهم في مدينة النور الأحياء المظلمة الكئيبة التي تكدسوا فيها بالمئات منتظرين بصيص من الأمل مع كسرة خبز تأتي من القصر، فلم يأت منه إلا قصص أسراف الملك والملكة سليلة القصر الأمبراطوري في فيينا، فقرر الشعب الذي غذته كتابات عصر التنوير الفرنسي بسلاح العقل قبل سلاح البارود، فقرر الشعب الفرنسي أن يخلق مخرج لأزمته فنزل إلى شوارع باريس يجأر بالصراخ ولا مجيب.

هذا في وقت ثارت ثائرة النخبة الفرنسية المثقفة على تردي الأوضاع داخل البلاد، وضياع هيبة فرنسا أوروبيا وتحولها إلى قوة من الدرجة الثانية، فإنكفأت النخبة المثقفة التي مثلها فلوتير وروسو ومونتيسكو وديدور يبحثون عن الحل للخروج من المأزق الذي دخلته فرنسا وبدى انها لن تخرج منه إلا بأطروحات جديدة غير مألوفة، فقد كانت فرنسا في هذا الوقت مجتمع ازمة لا يستطيع الخروج منها، فجاء المفكرون الفلاسفة الكبار بأطروحات جديدة للخروج بفرنسا من ازمتها الطاحنة ومعظم هذه الاطروحات جاءت لإصلاح النظام الملكي من داخله لا بالثورة عليه، إلا أن تجاهل مطالب الإصلاح جعلت الأمور تسير في طرق م يكن من المفترض السير فيها.

عصر التنوير

وجدت فرنسا المهزومة عسكريا بعض التعويض المعنوي في تفوقها الثقافي الذي بدأ مع فولتير (فرانسوا ماري آرويه) المولود في باريس في ٢١ نوفمبر ١٦٩٤م لأسرة برجوازية، وتم إلحاقه بكلية لويس لوغران اليسوعية، بعد تخرجه رفض فولتير أن يسير على نهج أبناء الطبقة البرجوازية من امتهان المحاماة، مفضلا حياة التشرد وغشيان المنتديات الأدبية على الحياة الرتيبة التقليدية. لكن كان كتابته لقصيدة ينتقد بلسانه اللاذع أوضاع المجتمع الفرنسي وهو في السابعة عشر من عمره كافيا ليذج به في سجن الباستيل الرهيب لمدة عام كامل. وعند خروجه ودع فولتير اسمه الذي ولد به وتلقب بالاسم الذي سيعرف به على صفحات التاريخ "فولتير".

لم يكن فولتير فيلسوفا نموذجيا من شاكلة الفلاسفة المشغولين ببناء منهج عقلي وبناء فلسفي محكم بقدر انشغاله بهدم الثوابت والتقاليد البالية التي تمنع التفكير الحر من انطلاقته، فكان صراعه مع الكنيسة ليس باعتباره مهرطقا أو خارج عن تقاليد الكاثوليكية، بل كان هجوم فولتير منصب على التدخل الكنسي في شئون الحياة اليومية للفرنسيين، ومنتقدا الوجه القاسي للكنيسة الكاثوليكية التي لاتعرف التسامح. ويقول ان الخرافات هي من صنع وابتكار القساوسة والكهنة فهم الذين صنعوا علم اللاهوت كما ان الخلافات هي من صنع وابتكار اللاهوت وهي سبب النزاعات المريرة والحروب الدينية.

وفضح فولتير المجتمع الفرنسي في كتابه "رسائل إنجليزية" الذي عرف فيما بعد بـ"رسائل فلسفية" وقارنه بالمجتمع الانجليزي الذي تغنى بفضائله، وانتصر لوضع انكلترا المتقدم على حساب وضع بلاده المتأخر وصب جام غضبه على فرنسا والفرنسيين لأنهم يأنفون عن سلوك درب العقل والتسامح الديني.

وقال: "في فرنسا يسود حكم إطلاقي مستبد، وطبقة نبلاء إقطاعية مغرورة بنفسها وعاطلة عن العمل. في فرنسا تجد التجارة محتقرة والفلاح مسحوقا يئن تحت وطأة الضرائب المفروضة عليه من قبل الإقطاعيين، وفي انكلترا تجد حكم البرلمان السيد المستقل بعد أن قضوا على الاستبداد من خلال ثورتهم الشهيرة ثورة

(كروموبل١٦٦٦). وتجد التجارة محترمة والفلاح غنيا وفخورا بوضعه وواثقا من نفسه.

في فرنسا تجد الناس غارقين في المناقشات اللاهوتية العقيمة من نوع: هل هذا حلال ام حرام، نجس ام طاهر، مؤمن ام كافر.. الخ. وفي انكلترا تجد المناقشات الفلسفية على طريقة فرانسيس بيكون ومنهجه التجريبي في العلم، أو طريقة جون لوك المنطقية المحسوسة لا التجريدية ولا الميتافيزيقية، أو طريقة نيوتن، ذلك العبقري العظيم الذي فسر لنا نظام العالم فقدره الانكليز و رفعوه إلى أعلى مرتبة". بذلك كشف فولتير زيف المجتمع الفرنسي بكل عيوبه ونفاقه وزيفه.

لم يكن فولتير أصيلا في معظم ما طرحه من أفكار تنسب إلى فلاسفة القرن السابع عشر الميلادي، إلا انه استطاع التعبير عنها بحرارة وقدرة أعطتها دفعة قوية إلى الأمام فأنتشرت افكار فلسفية على الملأ كانت حبيسة الكتب بفضل فولتير. ويكفي فولتير أنه قوض أركان صرح الخرافة من أساسها، فقد استغل مواهبه الأولى في المحاماة للدفاع عن قضايا العقل، فلو لم يكن فولتير مفكرا كبيرا لكان واحد من أعظم المحامين في العالم. لذلك فقد كان تفنيده لفكر الخرافة ودفاعه عن قيم العقل والتفكير الحر قويا جذابا.

رسالته التنويرية وجد فولتير صداها في أخريات حياته عندما عاد فارس التنوير الغائب إلى باريس في سنة ١٧٧٨م، لمشاهدة افتتاح مأساة "ايرين"، فقد استقبلته الجماهير استقبال الفاتحين، فقد حلت خيول عربته وقاموا بجر العربة حتى المسرح، لذلك عندما مات فولتير اثر إصابته بنزلة برد بعد عدة أيام كان قرير العين وهو يرى ثمرة صرخته الفكرية وهي تنمو على أرض الواقع، فكانت أشبه بكرة ثلج تدحرجت حتى وصلت إلى غايتها في الثورة الفرنسية.

مجنون جنيف

إذا كان فولتير قد أنتصر للعقل فإن قرينه في الشهرة وصديقه وعدوه فيما بعد جان جاك روسو أنتصر للعاطفة والانفعالات البشرية وأسس ما بات يعرف بالتيار الرومانسي الذي سيطر على الفكر والأدب الأوروبي طوال القرن التاسع عشر،

ويكفي أن أديب روسيا العظيم تولوستوي كان يضع قلادة عليها صورة روسو اعترافا بفضل هذا الرجل العظيم عليه.

لم يتخيل أحد في أوروبا القرن الثامن عشر أن جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م) المعروف بـ"مجنون جنيف" لغرابة أطواره، سيكون واحدا من أهم منظري الثورة إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، بل ان مؤلفه الرئيسي "العقد الإجتماعي" سيعد بلا جدال أنجيل الثورة الفرنسية، حياة "روسو" كانت السبب في ما ناله من تجاهل حينا وصخب وتقدير في أحيان أخرى، فـ"روسو" الذي ولد لأسرة تنتمي للبرجوازية في مدينة جنيف، وهاجر إلى باريس حيث الأضواء والشهرة منخرطا في حياة الصالونات التي سيطرت على الحياة الثقافية الباريسية، وأنغمس في تلك الحياة حتى الثمالة ثم انقلابه على هذا النمط من الحياة ووصفه بأقذع الألفاظ، بشكل فصله هو في كتابه الشهير "الاعترافات" الذي يعد نسيج وحده في أدب السيرة الذاتية.

فكان روسو غريب يعيش وسط غرباء ومن هنا جاءت عظمة ما طرحه وتجديده الفكري، بل هنا كانت نقطة التلاقي الأولى بين رجال الثورة وروسو فكما كان الأخير غريبا وسط مجتمعه، كان رجال الثورة غرباء عن عصرهم فتلاقى الغرباء، واعتبروا روسو صديق لهم رغم رحيله قبل الثورة بأكثر من عشر سنوات، فقد كان الثوار يرددون: "أنه كان في عصره من أنصارنا، أننا نحن الشيء الذي كان يريده، ونحن نحقق ما كان يريد وما كان يصبو إليه".

فقد رأى العالم بصورة مخالفة فجاءت أطروحاته صادمة لمجتمع الصالونات في باريس. لقد فند روسو أصول الملكية الأوروبية عامة والفرنسية الخاصة، وأرسى قواعد العقد الإجتماعي الجديد الذي يحمل صراحة مساواة واضحة بين المحكومين والحاكم، لقد أجاب روسو عن السؤال الصعب "لمن يعود حق التشريع؟"، ففي عام ١٧٦٤م نشر روسو كتابه "العقد الإجتماعي"، وبرهن على أن الدولة تنشأ من خلال عقد بين الفرد والنظام نتيج للتطور من نظام طبيعي تسود فيه قيم الفرد إلى نظام إجتماعي يتنازل الفرد عن بعض سلطاته لصالح الجماعة السياسية.

مع ملاحظة ان الفرد عندما تنازل عن جزء من سلطته لم يتنازل عنها لصالح فرد

او مجموعة أفراد وإنما تنازل للمجتمع ككل، لتنشأ إرادة عامة ينظم المجتمع بها شئون أفراده. وهو ما يؤدي إلى ظهور الجماعة السياسية وتكوين الهيكل السياسي المنظم لشئون المجتمع والقائم بمصالحه، ولما كانت الإرادة العامة هي القوة العامة، فللشعب أن يغير حكومته متى شاء، لأن كلمة الشعب في هذه الحالة إنما تعبر عن رغبته وإرادته العامة. وبذلك يكون روسو قد أعطى الشعب الفرنسي مفتاح الثورة بعد أن أسقط نظرية الحق الإلهي للملوك في الحكم.

من ناحية أخرى حدد روسو للإنسان، أي إنسان، دور في الحياة فالنفس –في تعريف روسو- من جهة تنطوي على ذاتها وتحيا حياتها الخاصة في الطبيعة، ومن جهة أخرى تتلاشى في حياة شعب وتسلم ذاتها كليا إلى الكائن الأخلاقي الذي تؤلفه الجماعة. فالنفس لا ترى حولها سوى أقنعة ونماذج من الحياة مصطنعة، ولا تعثر حولها على إنسان تحبه وليس حولها سوى أشخاص غرباء عن ذواتهم وعن الناس، حينئذ تبحث النفس عن سعادتها في داخلها، أو تحلم بوحدة جديدة قد تلاقيها البشرية في صور للحياة جماعية لاتزال مجهولة، وحدة تندمج فيها النفس بحيث تنسى ذاتها نسيانا تاما. ان لقيمة الجديدة الملازمة للغنسان كإنسان في كل ما يشعر به، وكذلك المثل الأعلى الثوري للمواطن، كلاهما يستمد أصوله من شعور واحد. وكان اهذه النظرة نتائج ثورية واضحة فالانسان الذي اكتسب مثل هذا الشعور بالذات وبقيمته كانسان بمعزل عن كل صلة بالمجتمع، لايسعه إلا أن ينكر النظام الإجتماعي القائم وان يعارضه مرسيا بذلك قواعد الحرية الفردية القائمة في المجتمع الغربي من حينذاك إلى يومنا هذا.

وجعل روسو بكتاباته الديمقراطية أمرا ممكنا بعد ان قال بأن "جميع الناس متساوون" في الآلام والأفراح، فلكل إنسان في نظر روسو أهمية وقيمة في ذاته، ومن هنا جاء تشجيع روسو على الديمقراطية.

بإعلاء روسو من قيم العاطفة، بالإضافة لأعلاء فولتير من قيم العقل يكون الإطار النظري التمهيدي للثورة قد أكتمل بثنائية العقلانية والعاطفة أو العقل والقلب، تكون الثورة قد اكملت منظومتها الفكرية التي ستدور في فلكها وستعطيها طابعها

المميز. وظل رؤيتهما تحدثان أثرهما أثناء الثورة الفرنسية، يتلاقيان أحيانا ويتعارضان أحيانا وذلك في صور متنوعة في صفتها الشعورية، لكن الغلبة كتبت في النهاية لرأي روسو.

الموسوعة

وكان دور دنيس ديدور (١٧١٣-١٧٨٤م) بجانب هجومه على الكنيسة والدولة من خلال مؤلفاته، جمع أفكار عصره ومنجزاته في عمل موسوعي كان هو الأول لما بات يعرف بالانسكلوبيديا (دوائر المعارف) وهو العلم الذي رسخ قواعد العلم وكان إشارة على أن عصر العلم قد بدأ بعيدا عن سيطرة الكنيسة، وأول محاولة جادة لتبسيط العلوم والمعرفة للبسطاء بعيدا عن الأرستقراطية، فجاءت الموسوعة تعبيرا حيويا عن الطبقة البرجوازية ضد قيم الملكية والأرستقراطية والكنيسة.

على خطى الموسوعة شارك الفيلسوف كلود ادريان هلفتيوس (١٧١٥-١٧٧١م) في تحرير بعض مقالات الموسوعة ووضع نظريته (في كتابيه "عن الروح" و"الذكاء") القائلة بأن الناس يولدون متساوين في القدرات والمواهب لكن ظروف التنشئة والتربية ومقدار ما ينالونه من تعليم هو ما يصنع الفارق، وهي نظرية كان لها وقعها في زمن أعتبرت الأسر الحاكمة في أوروبا نفسها من ذوات الدماء الزرقاء النقية لهم كل المميزات بإعتبارهم اختيار من قبل الله، لهذا كان من الطبيعي أن تحرق كتبه خصوصا إذا علمنا أنه هاجم الكنيسة وطالب بفصلها عن الدولة.

وعلى الرغم من أن هلفشيوس لم ينكر أية تعاليم مسيحية نراه هنا يدخل في دعوى مثيرة بقصد تقليص نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، وهي الكنيسة المعروفة بتداخلة مع الملكية في زواج لا يعرف الإنفصام، أنه يهاجم الكنيسة من وجهة نظر اجتماعية لا لاهوتية، أنه يشجب وجهة النظر الكاثوليكية في تمجيد العزوبة والفقر، أنه يتهم سيطرة الكاثوليك على التعليم لا بأنه تعوق النقد الفني والعلمي في الأمة بتجاهل العلوم والاستخفاف بها فحسب، بل بأنها كذلك تمكن رجال الدين من تشكيل ذهن الطفل لإخضاعه للسيطرة الكهنوتية. فكان بذلك صاحب أقوى دعوى لفصل التعليم عن السلطة الكنسية.

والآن وقد ظهر إنجيل العقل ضد الأساطير بمجهودات فولتير، وإنجيل المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية بمجهودات ديدور وعلماء الموسوعة، وإنجيل التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل والتفكير القديم في الموت بمجهودات روسو، فكأنما هبت رياح عاتية على فرنسا ومن وراءها أوروبا كلها مثل ريح محملة بلقاح جديد، تبدد كل التقاليد البالية وتنير الفكر وتوقظ العقل، وتدعو آخر الأمر إلى الثورة.

الشرارة الأولى

كانت فرنسا المهزومة في الخارج والمفلسة في الداخل تغلي على آتون من نار الغضب المكتوم الذي يحتاج لشرارة صغيرة لتنفجر الأوضاع كبرميل البارود يحطم كل ما حوله، وكانت كتابات عصر التنوير مع الظلم والفساد والفقر المتفشي هي حطب الثورة التي غذتها على مهل ولكن في تصاعد.

لجاء الشعب الفرنسي هربا من الفقر والذل في القرى إلى باريس طالبا عون الملك ونجدته إلا أن لويس السادس عشر لم يرد إلا بالمزيد من الحفلات التي كانت عنوانا للبذخ في أوروبا كلها، فكانت تصل إلى الجماهير الجائعة قصص أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة عن كنوز القصر وبذخه وثراء حاشيته، ومقدار ما ينفق في القصور الملكية حتى قيل أن ما ينفق في تلك القصور الساهرة يكفي لإطعام شعب فرنسا كله.

عندما توفى الملك لويس الخامس عشر في ١٠ مايو ١٧٧٤م آل العرش لحفيده لوي- أوجست (المولود في عام ١٧٤٥م) الذي عرف بلقبه الملكي لويس السادس عشر، وقد ورث الملك الشاب تركة ثقيلة فالنفوذ الفرنسي بإعتبارها أكبر قوة في أوروبا تداعى والجيش مفتت ومرهق، وقد أصبحت فرنسا القوة البحرية الثانية بعد انجلترا والقوة البرية الثانية بعد روسيا القيصرية، والخزينة خاوية أو تكاد، والإقطاع استفحل نفوذه. بالإضافة إلى الزوجة المتسلطة ماري أنطونيت بنت الإمبراطورة ماريا تاريز إمبراطورة النمسا، والتي مارست نفوذ غير صحي على زوجها، وقهرته في الكثير من المواقف ما أضر بسمعة الملك، ففي ظل هذه الظروف الصعبة التي كانت تعانيها فرنسا من أزمات إقتصادية أسرفت الملكة الشابة في طيش في إقامة

الحفلات الصاخبة وكانت مشغولة بشيء واحد فقط هو كيف تنفق كل أموال زوجها، لذلك لم تتورع في عزل وزراء زوجها الذين حاولوا التصدي لسفهها المالي بخطط تقشف لإنقاذ خزينة الدولة منها، وهي الحفلات التي رددت أوروبا كلها أصدائها، ما دفع أخيها الإمبراطور جوزيف إمبراطور النمسا إلى السفر متنكرا من فيينا إلى باريس ليقنع أخته الملكة الشابة بالإقلاع عن الإسراف والطيش، وصبغ وجنتيها وشفتيها، وأصغت إليه في ضجر، لكنها ضربت صفحا عن نصائح أخيها بمجرد خروجه من بوابة القصر الملكي وعادت إلى سيرتها الاولى من التسلط على زوجها وأسرافها الذي لايعرف حدود. في وقت كانت فرنسا تمر بأزمة عميقة تضرب في جذور الدولة ومؤسساتها بصورة غير مسبوقة، تنذر بصراع بين الملك والنبلاء بصورة مكشوفة.

انتصار ...الإقطاع!

سوف يدهش الكثيرون عندما يعرفون أن المفجر الاول للثورة لم يكن البرجوازيين بل الإقطاعيين. فالنظام الإجتماعي والسياسي والإقتصادي لفرنسا قبيل الثورة كان نظام ينتمي للعصور الوسطى بجدارة، بل يعد النظام الملكي الوحيد في اوروبا الذي احتفظ بابجديات المجتمع القرو-متوسطي، فقد كان الملك يحكم بموجب التفويض الإلهي على رأس الدولة تدعمه طبقة الإقطاعيين المعروفين بـ"النبلاء" الذين احتكروا جميع الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية وكانت سلطتهم في الأقاليم واسعة لدرجة فرض رسوم انتقال بين اقليم فرنسي واخر. دعم الملك وطبقة النبلاء رجال الكنيسة الذين وفروا الدعم الديني لنهب الملك ورجاله للشعب، بل وسربوا روح السكينة والخضوع في نفوس الفرنسيين لتحمل المزيد من القهر والظلم، كما قام رجال الدين بمشاركة الإقطاعيين نفوذهم وأموالهم وقهرهم للفلاحين البؤساء الذي شكلوا غالبية المجتمع الفرنسي وقاعدته العريضة مهضومة الحق، ففي الوقت الذي أعفي رجال الكنيسة من الالتزامات المالية للدولة، حمل الاقطاعيون التزاماتهم على الفلاحين، فأصبح الفلاح مطالبا بالتزاماته الشخصية بالإضافة إلى سداد التزامات سيده الإقطاعي.

في هذا النظام متشابك المصالح بين الملك والإقطاعيين والكنيسة الكاثوليكية لم يكن من المتوقع أن يحدث أي خلاف بين أضلاعه الثلاثة، لكن هذا ما حدث قبيل الثورة فقد كان إفلاس الملكية نقطة البداية، فقد خسرت خزينة الملك أخر مدخراتها في حرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥-١٧٨٣م) التي اشتركت فيها فرنسا بثقلها من أجل تحقيق فوز معنوي على حساب انجلترا العدو اللدود. لم يعد من حل لدى الملك إلا فرض ضرائب مرتفعة على النبلاء ورجال الكنيسة.

هنا وجد الإقطاعيين فرصة ذهبية جاءت إليهم تحمل فرص غير محدودة بالانقضاض على الملكية المطلقة وانتزاع سلطاتها مقابل المال الذي سيدفعونه، فقرروا استخدام قوة المال لإكراه الملك على قبول ضرب من الحكم الدستوري يتيح لهم مشاركة متزايدة في شئون الحكم.

وكانت شرارة المواجهة بين الملك والإقطاعيين عندما قد المراقب العام للمالية كالون مشروعا للملك في أغسطس ١٧٨٦م يهدف إلى إلغاء امتيازات الإقطاعيين وفرض الضرائب على الشعب الفرنسي كله بنسب متساوية وجعل مسئولية جمعها لرجال الحكومة لا لرجال الإقطاعيين، وهو أمر أدرك كبار الإقطاعيين والكنيسة خطورته عليهم، فتحركوا سريعا وأطاحوا بكالون وعينوا مكانه لومني دي برين رئيس أساقفة تولوز، وهو ما عد نصرا سريعا للإقطاعيين ورجال الأكليروس.

لكن رغم ذلك فلم تنته الحرب بين الملك والإقطاعيين، وأعلن الأخيرين صراحة تخليهم عن دعم الملك ماديا ، وهو أمر دعى برين إلى تحذيرهم بقوله:"مادام النبلاء ورجال الدين تخلوا عن الملك، حاميهم الطبيعي، فلابد من الارتماء في أحضان العامة (أي البورجوازية)". لم يكتف الاقطاعيين بذلك بل أعلنوا العصيان والتمرد في الأقاليم الفرنسية، وهو ما كان يعني انتصارا لطبقة الاقطاعيين ورجال الدين وانهيارا تاما لسلطة الملكية بصورة غير مسبوقة. لم تكن شخصية لويس السادس عشر تسمح له بمواجهة مثل هذه الضغوط، لذلك لم يكن له إلا ان رضخ أمام الإقطاعيين وقبل مطلبهم بدعوة مجلس طبقات الأمة المشكل من ممثلي الطبقات الفرنسية الثلاث (الإقطاعيين والإكليروس والعامة) للانعقاد في أول مايو ١٧٨٩م بناء على مطالب

النبلاء، وكان هذا الانتصار الكبير للإقطاعيين أخر ما سجلته هذه الطبقة من انتصارات، وهو الانتصار الذي حفرت به تلك الطبقة قبرها وقبر الملك جميعا.

مجلس طبقات الأمة

في ٤ مايو ١٧٨٩م، جاء اليوم المشهود تجمع النواب من جميع المقاطعات الفرنسية في قصر فرساي بحضور ممثلي طبقات المجتمع الثلاث رجال الدين والإقطاعيين والعامة، ففي مشهد مهيب لا تخطئ العين دلالته تقدم كهنة كنيسة القديس لويس بفرساي الجميع تلاهم ممتلي الطبقة العامة (البرجوازية) وهم يرتدون الملابس السوداء، ثم تلاهم نواب النبلاء بملابسهم المذهبة، ثم نواب الإكليروس، ثم جاء الملك والملكة في موكب مهيب يحيط بهما أفراد أسرة البوربون العريقة. كان مظهر الموكب فاتنا للجميع فقد بدى أن فرنسا بطبقاتها قد توحدت من جديد بعد طول تمزق، وان الأزمة في طريقها للحل. لكن تحت السطح بمظاهره الخادعة كانت حمم البركان تعتمل في القاع فأثناء مرور موكب نواب العامة تعالت صيحات وتصفيق النظارة من أهل المدينة المزدحمين فوق أسطح المنازل، وهو ما تكرر أثناء مرور الملك لويس السادس عشر، فيما استقبل الفرنسيون مواكب النبلاء ورجال الدين والملكة بالصمت المبطن بالاستهجان.

كان الاجتماع منذ البداية ينحاز لطبقة العامة التي شكلت نصف عدد مقاعد مجلس طبقات الأمة، فقد كان عدد مقاعدهم ٦٢١، في حين كان عدد مقاعد النبلاء والإكليروس معا ٥٩٣ مقعدا، وكان هذا بناء على طلب من البرجوازيين الذين رفضوا المشاركة إلا بعد رفع تمثيلهم إلى ما يزيد عن عدد ممثلي الإقطاعيين ورجال الدين معا، وهو ما وافق عليه الملك، فكان بداية لسلسة من الانتصارات البرجوازية.

وزاد من قوة موقف العامة (البرجوازية) أن معظم نواب الإكليروس كانوا من أصول برجوازية فانحازوا في الوقت المناسب لطبقة العامة. وكان تشكيل ممثلي العامة من البرجوازية فقد كان ثلثاهم من رجال القانون والإدارة، في حين شكل رجال الأعمال والمصارف ١٣%، وملاك الأراضي والزراع والأعيان بلغت ١٠%، رغم تنوع خلفياتهم إلا أنهم عملوا في انسجام على اعتبار ان مصلحتهم واحدة.

رفض نواب الاقطاعيين ورجال الدين فكرة التصويت المفتوح بأحصاء عدد أصوات الأعضاء، وفضلوا أن يأتي القرار عن طريق اتخاذ كل طبقة قرارها الخاص ثم تجمع قرارات الطبقات الثلاثة وتأخذ الأغلبية بفارق صوت، وهو ما يعني عمليا تهميش طبقة العامة (البرجوازية) وحرمانها من أغلبية الأصوات التي تمتلكها، ورغم محاولات البرجوازية لإقناع كبار الإقطاعيين حلول وسط ترضي الطرفين فأن عناد الإقطاعيين كان بالمرصاد لهذه المحاولات، فقد ألقى الإقطاعيون المنتشون بإنتصارهم على الملك القفاز في وجه البرجوازيين، وهو ما أدى إلى انتقال الصراع بين الملكية والإقطاع إلى الصراع بين الإقطاع والبرجوازية الصاعدة.

قبل نواب الشعب (البرجوازية) التحدي سريعا ورفضوا مقترحات الإقطاع، وعملوا على تجميع قواهم وأهدافهم على رأي واحد واضح. وبعد مراسلات استمرت لأسابيع أرسل نواب العامة في يوم ١٠ يونيو لجنة إلى ممثلي طبقتي النبلاء والإكليروس تدعوهم بشكل نهائي إلى اجتماع موحد، وتحملهم مغبة رفض هذا العرض، مؤكدين على أنهم يمثلون نحو ٩٦% من مجموع الأمة فهم لذلك أصحاب السلطة الشرعية فيها، لذلك إذا رفض ممثلي الطبقتين في الاجتماع فأنهم سيأخذون في تشريع للأمة بدونهم، ذهبت هذه الدعوة التي كانت تحمل تطورا خطيرا أدراج الرياح في ظل استعلاء مبطن بالغباء من قبل الإقطاعيين.

الجمعية الوطنية

عمل ممثلي الشعب بسرعة وذكاء فقد أعلنوا في يوم ١٧ يونيو سنة ١٧٨٩م عن تأسيس "الجمعية الوطنية" التي ستمثل الشعب منذ ذلك الحين بإعتبارهم أصحاب الحق في التكلم باسم الأمة والتصرف باسمها، والتي كان اعلان وجودها على الساحة الفرنسية يعني تحويل الملكية المطلقة تلقائيا إلى ملكية مقيدة، وأنهاء امتيازات الإقطاعيين، بمعنى أخر كان اعلان الجمعية الوطنية يعني وفاة النظام القديم من حيث المضمون، وشكل من الناحية السياسية بداية الثورة.

أعلن نواب الشعب عدم شرعية الضرائب الحالية ولكنهم مع ذلك قرروا الاستمرار في جبايتها ما دامت الجمعية منعقدة كخطوة تكتيكية حتى لايتم حل الجمعية

بمرسوم ملكي بربط الجمعية بعملية جمع الضرائب الحيوية بالنسبة لخزينة الملك الخاوية. وقرروا كذلك انشاء لجنة للتموين كي تنظر في مشكلة الغذاء وقلته وما يتهدد البلاد من المجاعات، وأنها بعد قبول دستور جديد ستتكفل بديون الدولة وتوافق على سدادها،وكانت هذه القرارات رغم بساطتها أول مرة يرفع فيها الشعب الفرنسي في وجه السلطة القديمة.

لم تمر أحداث يوم ١٧ يونيو مرور الكرام فقد كانت له تبعاته المتوالية كلعبة الدومينو ما كادت تسقط الورقة الأولى حتى تداعت بقية الأوراق. فقد هال النبلاء ورجال البلاط ما جرى، وأجمعوا على ضرورة ذهاب الملك إلى مقر "الجمعية الوطنية" في موكب رسمي ليعلن أن قراراتها لاغية، وتم إغلاق مقر الجمعية الوطنية من قبل قوات الملك إنتظارا لزيارة الملك المرتقبة للجمعية. واستشار لويس مجلسه الخاص، فحذره وزير ماليته الجديد نكر من أن مجلس الطبقات سينهار ما لم تذعن طبقتي الإقطاعيين والإكليروس، وأن الضرائب لن تدفع، وأن الحكومة ستصبح مفلسة لا حول لها ولا قوة، واعترض وزراء آخرون بأن التصويت الفردي سيكون معناه دكتاتورية العامة، وإصابة طبقة النبلاء بالعجز السياسي،وبالتالي إضاعف سلطة الملك ذاته وتقليل إمتيازته وقرر لويس أن يقاوم الجمعية الوطنية لأنه شعر أن عرشه يعتمد على النبلاء والإكليروس، وقدم نكير استقالته بعد أن هزم، ولكن الملك أقنعه بالبقاء لعلمه بأن الشعب سيقاوم خطوة كهذه.

تحرك رجال الجمعية الوطنية بسرعة فقرروا القسم على صيغة اخترعوها تخول لهم عقد جلسات الجمعية الوطنية في أي مكان طالما أن اعضائها مجتمعين، وقد كان الأعضاء يقسمون هذا القسم التاريخي العظيم بحماسة شديدة والشعب محيط بهم في صمت يتجلى فيه عطفه عليهم وتأييده لهم. وقد خلد الفنان دافيد مشهد قسم اعضاء الجمعية في صورة رائعة مكللة بالروعة والجلال.

سارع النبلاء باحتلال أرض ملعب التنس لمنع اجتماع اعضاء الجمعية من جديد، فما كان منهم إلا ان وضعوا القسم موضع التنفيذ واجتمعوا في كنيسة "القديس لويس" وهناك حقق نواب الشعب انتصارا جديدا حيث انضم إليهم ١٤٤ من القساوسة و٤ من

كبار رجال الدين واثنان من النبلاء.

انحازت الملكة ماري أنطونيت إلى الإقطاعيين، ومن خلالها مارسوا نفوذا قويا على الملك لويس السادس عشر الخانع أمام زوجته المتسلطة. لذلك عندما انعقدت الجلسة الملكية في يوم ٢٣ يونيه ١٧٨٩م، كان موقف الملك لويس السادس عشر واضحا في انحيازه للنبلاء، على الرغم من اعلانه استعداده أن يكون ملكا دستوريا حقيقيا، فلا تجمع القروض ولا الضرائب دون موافقة مجلس طبقات الأمة، كما أبدى استعداده اتخاذ الخطوات لرفع الرقابة عن الصحف، وهي قرارات في ظاهرها إنتصار للبرجوازية وانهاء لحكم أسرة البوربون المطلق. وأنهى لويس السادس عشر خطبته بقوله: " إني لأقول لكم بحق أنه ما من ملك كان لشعبه مثل ما أنا لكم. فكونوا معي أكن معكم وإلا قمت وحدي بالعمل لتحقيق مصالح الأمة واعتبرت نفسي مندوبها الوحيد".

كانت هذه الأقوال للاستهلاك المحلي وما يظهر على السطح فقط، أما في الواقع فقد ألتف لويس السادس عشر على ما حققته "الجمعية الوطنية" فقد ربط الملك تلك الإصلاحات بشرط أساسي وهو الاعتراف ببطلان جميع القرارات التي اتخذتها "الجمعية الوطنية"، مع التأكيد على إنه "يريد أن يظل التمييز القديم بين طبقات الدولة الثلاث (الإقطاعيين والإكليروس والعامة) كاملا، لأنه مرتبط ارتباطا أساسيا بدستور مملكته" ومعنى ذلك أن الملك أراد ببساطة العودة إلى النظام القديم متجاهلا رغبة الشعب الحقيقية التي عبر عنها ممثلي البرجوازية، بل وعمل على تكريس نفوذ طبقتي الإقطاعيين ورجال الدين تحت مسمى الحفاظ على النظام القديم.

وقفة ميرابو

وهكذا اختار الملك –بضغط من الملكة- طريقه وحسم إختياره بالاستسلام لدرجة الإبنطاح أمام الإقطاعيين وليس للبورجوازية ممثلة الشعب، وهو ما يعني من وجهة نظر البرجوازية أن كل الطرق سدت أمامها ولم يعد هناك من حل إلا الثورة أي أن الصراع بين الإقطاعيين والبرجوازية وصل إلى قمته بصراع مكشوف بين الملك والبرجوازية.

لذلك عندما أمر الملك ممثلي الطبقات أن يخلوا القاعة فانسحب النبلاء وغالبية رجال الدين، فيما رفض نواب البورجوازية الإنسحاب، وقرروا تحدي أمر الملك مباشرة، لأن إنسحابهم كان يعني القضاء عليهم من قبل أعوان الملك.

وقد حسم ميرابو الموقف لدى نواب الشعب عندما وقف بينهم خطيبا قائلا: "أيها السادة...أني أعترف لكم بأن الذي سمعتم الآن ربما كان في صالح الأمة ولكني أشك دائما في كل ما تهديه إلينا يد الاستبداد وأوجس منه خيفة. فما هذه الدكتاتورية الشائنة، أنهم يريدون أن يكرهونا بقوة السلاح على أن نسلك سبيل السعادة التي يرسمونها لنا. فمن هذا الذي يصدر هذا الأمر؟! أنه وكيلكم!، من هذا الذي يضع هذه القوانين؟ أنه وكيلكم أيضا! انه هو عين الشخص الذي كان ينبغي عليه أن يتلقى الأوامر منكم، نعم أيها السادة عنا نحن الذين نمثل ٢٥ مليونا كلهم ينظرون إلينا ويتطلعون إلى ما سنحمل إليهم من السعادة ولكن ها أنتم تجتمعون وتتناقشون تحت قوة السلاح. فمم يخشون علينا؟ أين هم أعداء الشعب الذين يريدون حمايتنا من أيديهم؟ أنني أطلب أليكم أن تكونوا عند حد القسم الذي أقسمتموه. إن هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا حتى تضعوا لهذه الأمة دستورا". كان من الطبيعي ان تنتشر روح الحماسة وتلتهب المشاعر بعد سماع هذ الخطبة، لذلك عندما جاء الماركيز بريزيه كبير أمناء القصر يطالبهم بتنفيذ أوامر الملك، رد عليه باييي (عالم فلكي وأحد ممثلي نواب الشعب) قائلا: "لا يمكن للأمة المجتمعة هنا أن تصدر إليها أوامر". وعلق الأب سييس قائلا: "أيها السادة أنكم اليوم كما كنتم بالأمس، لقد اجتمعنا على أن نحصل للشعب الفرنسي على حقوقه، فلنمض في مباحثتنا!". وهنا أعلن المجتمعون بطلان الجلسة التي ترأسها الملك وأعتبروا قرارتها كأن لم تكن.

وقبل أن يرحل كبير الأمناء حاملا جواب البرجوازية وقف ميرابو قائلا مقولته المشهورة: "أذهب يا سيدي، وبلغ مولاك أننا لن نغادر هذا المكان إلا على أسنة الحراب". وما كاد ميرابو يتمم كلمته هذه حتى صاح النواب في صوت واحد: "نعم هذه هي إرادة الجمعية". واقترح ميرابو على الاعضاء التصويت على قرار يعطي نواب الشعب حصانة ضد المحاكمة وهو ما وافق عليه الأعضاء لتتحول "الجمعية

الوطنية" إلى سلطة رسمية في فرنسا بدون الرجوع للملك.

ترقبت باريس رد فعل ساكن قصر فرساي وزوجته المتسلطة، وكان الملك في مأزق حقيقي فالنبلاء باعوه ورفضوا التعاون معه بل رفعوا راية العصيان في أكثر من مقاطعة فرنسية، والجيش فضلا عن أنه تعب ومرهق من حروب الاستقلال الأمريكية مشتت في المقاطعات الفرنسية، ناهيك عن الخزينة الخاوية التي تمنع الملك من شراء ذمم بعض الإقطاعيين ورجال الدين، لكل ذلك قرر الملك الإنحناء مؤقتا أمام العاصفة ففضل عدم تنفيذ تهديده بفض المجلس بالقوة، قائلا: "إذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم".

وفي اليوم التالي ٢٤ يونيو ١٧٨٩م انضمت غالبية رجال الدين –ذوي الخلفية البرجوازية- و٤٧ من البنلاء إلى ممثلي البرجوازية وعلى رأسهم الدوق دورليان ابن عم الملك صاحب النفوذ الواسع في فرنسا، وهو أمر أثر في الملك لدرجة انه قام بنصح بقية النبلاء ورجال الدين بالخروج على أوامره والإنضمام إلى العامة فساروا إليها كارهين متثاقلين يحوطهم شعور بالهزيمة وضياع السلطان.

ولقد أراد دوق لكسمبرج زعيم النبلاء أن يثني الملك عن أمره هذا فقال له:"إن هذا الأمر يا مولاي يعتبر بمثابة إعلان من جلالتكم بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة، والنبلاء مستعدون لأن يفدوا جلالتكم بأرواحهم". فما كان من الملك المغيب إلا أن قال: "أني لا أريد أن يموت أحد من أجلي".

هكذا بدى في سماء فرنسا أن الثورة السلمية التي قام بها ممثلي البرجوازية قد نجحت، وان الملك مع الإقطاعيين قد رضخوا للتغير الإجتماعي الذي حدث في فرنسا وانتج قوى سياسية جديدة ممثلة في البرجوازية.

وعلى هذا الأساس بدأت الجمعية الوطنية في اتخاذ خطوات تكرس انتصارها السريع ففي يوم ٧ يوليو اختار المجلس لجنة لوضع دستور جديد يحد من سلطات الملك، وفي يوم ٩ يوليو غيرت "الجمعية الوطنية" اسمها إلى "الجمعية التأسيسية"، وفي يوم ١١يوليو قدم لافاييت مشروعه الخاص بإعلان حقوق الإنسان. ليعتقد الكثيرين بعد هذه التطورات أن الثورة قد انتهت دون أن تراق في سبيلها نقطة دم

واحدة، لكن فرنسا كانت على اعتاب منعطف تاريخي بالغ الخطورة، فأكثر الثورات دموية في التاريخ كانت على وشك البداية.

كرة النار

رأينا كيف حقق رجال الطبقة الوسطى انتصارات على حساب الملك والنبلاء جميعا، وهو ما جعل الجميع يظن أن الانتقال السلمي من النظام الملكي المستبد إلى النظام الملكي الدستوري قد تم في يسر وسهولة، إلا أن الأيام التالية على أيام الثورة الأولى كانت حبلى بالأحداث التي تصاعدت لتجعل الصراع على أشده بين الملك والبرجوازية. فكأنما أخذت رجال البلاط نوبة من الذهول إزاء هذا الاندحار الذي أصاب نفوذهم على يد ممثلي الشعب، فتآمروا على الانتقام لأنفسهم وبدأوا باقصاء "نكر" -وزير المالية صاحب شعار "ان الحكومة وظيفتها الوحيدة أن ترضي الشعب وتوفر له لقمة عيشه"- عن الملك حتى لا يبقى تحت تأثير هذا الإصلاحي الكبير، هو ومن على شاكلته من المصلحين، وعين الملك محله البارون ديبروتوي، صديق الملكة، وديبرولي وزيرا للحربية، وهما من المحسوبين على القوى المناوءة للثورة. فيما أقنع الإقطاعيون ورجال البلاط الملكة ماري أنطوانت والكونت أرتوا أخو الملك، بإقناعه بوجوب العدول عن خطة المسالمة وضرورة الالتجاء إلى القوة لاستعادة ما خسرته الملكية من النفوذ في الأيام الأخيرة.

استدعاء الجيش

لم يستطع الملك الضعيف الصمود أمام ضغط زوجته المتسلطة المدعومة من قبل رجال البلاط، وأدخلوا إلى رأسه هاجس التخوف من قوات الجيش المرابطة في باريس وارتماءها في أحضان الشعب عند اي مواجهة، فما كان أسرع من إصدار الملك قراره بدعم القوات المتواجدة حول باريس، ولم يمض غير قليل حتى أحاطت بباريس قوة من الجيش تقدر بـ٤٠ ألف جندي، كان معظمها من الفرق العسكرية السويسرية والألمانية، التي ينظر إليها من قبل الفرنسيين على أنهم أجانب ولاءهم للملك، لتبدأ سحب الشؤم والخراب تتجمع فوق سماء باريس، بعد أن شعر أعضاء

الجمعية الوطنية ان الملك وأعوانه يتأمرون على مكتسبات الشعب.

اجتمع اعضاء الجمعية الوطنية وقرروا بناء على اقتراح ميرابو إرسال وفد إلى الملك يلتمس منه سحب القوات المحيطة بالعاصمة لما لها من أثر نفسي سيء على المواطنين ويشكل بادرة خطيرة للانقلاب على متكسبات الشعب. كان رد الملك كارثيا فقد أعلن صراحة أنه صاحب السلطة المطلقة في تحريك قوات الجيش حيث شاء وأن هذه القوة لم يقصد بها إلا المحافظة على النظام، وأنه ينصح أعضاء الجمعية بالانسحاب إلى ما وراء باريس إن كانوا يخشون من هذه الجنود بأسا.

أثار هذا ثائرة الإصلاحيين والبرجوازيين الذين تأكدوا من مخاوفهم وان ما قام به الملك لم يكن أكثر من مناورة لكسب الوقت من أجل التقاط الأنفاس والاستعداد لتوجيه ضربة قاصمة للقوى المناوئة له. مع ملاحظة أن الميل السائد بين الأعضاء حتى هذه اللحظة كان في جانب الابقاء على الملك من خلال تأسيس الملكية الدستورية، وكان من رأي ميرابو –وهو واحد من أشد أعضاء الجمعية راديكالية- المطالبة بحكومة شبيهة بحكومة إنجلترا بوجه عام، تكون فيها الجمعية الهيئة التشريعية،مع الحفاظ على النظام الملكي.

لذلك أثارت تصرفات الملك غضب النواب لدرجة دفعت ميرابو للتساءل قائلا: "هل درس هؤلاء الرجال، في تاريخ أي شعب من الشعوب، كيف تبدأ الثورات وكيف تنفذ؟، وهل لاحظوا بأي سلسلة رهيبة من الظروف يكره أعقل الرجال على إتيان أفعال تتجاوز كثيرا حدود الاعتدال، وبأي دوافع مخيفة يقذف بشعب غاضب إلى ألوان من الشطط، لو فكروا فيها بمجرد تفكير لارتعدت فرائصهم فرقا؟".

لذلك كان من الطبيعي ان تموج باريس بالاضطرابات العنيفة وسارت فيها موجة من الشائعات الخطيرة حول إلقاء القبض على بعض الإصلاحيين هنا وهناك، وساعدت الصحف التي تنتمي إلى البرجوازية على زيادة توعية الناس وكشفت مخططات الملكية للإتفاف على المبادئ الإصلاحية، وتنافس الخطباء في إلهاب الجماهير واذكاء حماستهم فكنت لا ترى حيث تسير إلا خطيبا يعدد للناس ما يتهددهم من الأخطار ويناشدهم القيام في وجه الظلم والظالمين، وإلا جماعة أحاطت به فوقفت

تستمع له بأفواه متقلصة الشفاه ووجوه ممتقعة اللون وعيون تنبعث منها نوايا الشر ولم يبق لانفجار هذا الأتون المشتعل إلا أقدام رجال البلاط على حماقة من حماقتهم التي أوصلت الأمور إلى وضعها المتأزم منذ البداية.

اندلاع الثورة

جاءت تلك الحماقة في يوم ١١ يوليو عندما كان وزير الشعب نكر يتناول غدائه في منزله وجاءه رسول الملك يبلغه فيه بصدور حكم بنفيه خارج فرنسا وأن عليه مغادرة البلاد في الحال. بكل هدوء أكمل الرجل طعامه، ثم طوى الخطاب الملكي، ولم يفض إلى احد من الإصلاحيين بما حدث، واصطحب مدام نكر معه في عربته، وسار بها إلى حدود فرنسا.

غير أن بيوت السياسيين دائما لها ألف عين ترى وألف عين تسمع وألف عين تذيع، لذلك باتت فرنسا كلها وهي تعرف ما جرى مع وزير الشعب "نكر"، وفي صباح اليوم التالي اندفع الآلاف إلى شوارع باريس وساروا إلى حدائق "الباليه رويال" حيث أعتلى كل خطيب منصة من منصات الحديقة وتباروا في توعية الناس بالمخاطر التي تحيق بهم إذا سحق تيار الإصلاحيين.

وسط هذا الجو المشحون ألتفت الحشود حول الخطيب "كامي ديمولان" الذي خطب في الناس وهو أحمر العينين وفي يده مسدس مشهور قائلا: "أيها المواطنون! ليس لدينا وقت نضيعه، لم يكن خلع نكر إلا نذيرا بمذبحة يكون ضحاياها من الوطنيين المخلصين. وفي هذه الليلة ستقوم الفرق السويسرية والألمانية من ثكناتهم ليذبحونا جميعا، لم يبق أمامنا إلا طريق واحد، ذلك أن نحمل السلاح". فقوبلت كلماته هذه بصيحات الاستحسان العنيفة التي رجت أرجاء باريس، فعاد واقترح عليهم أن يعملوا على تمييز أنفسهم بوضع شارات تجعلهم في وسط المعمعة يتعارفون ويتكاتفون، ثم قال: "فهل تختارون اللون الأخضر، لون الأمل...أم الأحمر، لون الحرية؟" فصاحوا به جميعا "الأخضر...الأخضر". فوثب ديمولان عن ظهر منبره وأخذ بغصن فقطع طرفه ثم وضعه في جانب قبعته فحذا حذوه سامعوه حتى لم يعد يبقى في الحديقة غصن أخضر.

وانطلقت هذه الجموع كلها في صورة مظاهرة غاضبة هائلة كانت الشوارع الجانبية تعمل على تزويدها بثوار جدد، عندما وصلت الجماهير الغاضبة إلى "ميدان فندوم" لقيتهم مجموعة من الجنود الألمان -العاملين في الجيش الفرنسي – الذين قاموا بالتصدي للثوار وأرادت تفريقهم بالقوة فأمطرها المتظاهرون بوابل من الحصى والحجارة فولوا الأدبار. أنتشى الثوار بإنتصارهم الأولى على الجيش لذلك عندما واجهتهم قوة أخرى في ميدان لويس الخامس عشر كان الصدام عنيفا، فقد أطلقت عليهم قوات الجيش النيران بكثافة فسقط شهداء الثورة الأول وهجم قائد القوة بفرسانه شاهري السيوف فوقعت طعناتهم على بعض المارة ممن لم يشارك في التظاهرة، فخرجت الأمور عن السيطرة وأشتعلت البلاد بالغضب وبلغ الاستياء منتهاه من النظام الحاكم، وانتشرت الدعوة "إلى السلاح" في كل مكان، ودخلت فرنسا الآن آتون الثورة.

١٤ يوليو...سقوط الباستيل

حاولت الجمعية الوطنية التدخل لنزع فتيل الأزمة قبل اشتعالها، فبادرت بإرسال وفد إلى الملك ليطلعه على حقيقة الخطر الذي بات يتهدد البلاد ويلتمس منه سحب الجنود الأجانب من باريس وتسليم المدينة إلى حرس من الوطنيين، لكن الملك رفض هذه المطالب فعاد الوفد يجر أذيال الخيبة. رغم موقف الملك المخيب قررت الجمعية الوطنية الاجتماع وقررت إلقاء مسئولية الموقف على الوزراء الحاليين الذين خلفوا نكر وزملاءه من الإصلاحيين، كما قررت التمسك بوجوب استبعاد الجنود الأجانب وانشاء حرس وطني.

في شوارع باريس كان الغضب الشعبي يتزايد وفي يوم الأثنين ١٣ يوليو تشكلت فرق وطنية شعبية من مختلف الأحياء الباريسية، وتم تنظيم هذه الفرق، وجعل على كل واحدة منها ضابط وتولى قيادة الجميع قائد عام. ثم ألغيت الشارة الخضراء شعار المتظاهرين الأول وجعل مكانها اللونان الأحمر والأزرق وهما لونا مدينة باريس وبدأت دوريات المتطوعين تطوف شوارع المدينة فعلا.

في يوم ١٤ يوليو هجم الثوار على "الأوتيل ديزا نفاليد" واستولوا منها على ٢٨

ألف بندقية وأخذوا كل ما كان فيها من سيوف وخناجر وأسلحة متنوعة، بذلك أتم الثوار تسليحهم وأصبحوا قوة مسيطرة على شوارع باريس. لذلك عندما راجت إشاعة بأن الحكومة الملكية صوبت مدافعها من سجن الباستيل على شارع سانت انطوان استعدادا لمهاجمة الجماهير المحتشدة، كان مجرد ذكر سجن الباستيل كافيا لإشعال غضب الثوار فقد كان السجن الرهيب عنوانا للاستبداد وركن من أركان الاستعباد، كان حصنا مخيفا أعدت فيه جحور معتمة بها سلاسل وأغلال أعدها ملوك أسرة البوربون لأعدائهم من السياسيين وأعداء أركان نظامهم، فكانوا يلقونهم فيه من غير تحقيق ولا محاكمة حتى إذا مات أحدهم في ظلمته الموحشة أخرجوه ودفنوه سرا بإسم مستعار ليظل أمره مستورا إلى الأبد. وكان السجن يعد قصرا ملكيا منذ عام ١٦٦٧م وهو الأمر الذي جعله لايخضع لأي رقابة من أي نوع إلا من قبل الملك نفسه.

توجه الثوار الغاضبين إلى سجن الباستيل وهم يصيحون "إلى الباستيل..إلى الباستيل"، وشكلوا وفدا منهم لمقابلة رئيس حامية السجن للمطالبة بسحب المدافع، وهو ما رفضه سريعا.

كانت الأوضاع المحتقنة تنذر بالاشتعال فالوفود الثائرة تحيط بسجن الباستيل من جميع جهاته، وقوات الحامية المتحفزة لأي حركة من قبل الثوار. هجم الثوار على الجسور التي تربط البوابات فوق الخندق المحيط بجسم السجن، وأثناء الهجوم على أحد الجسور أمطر رجال حامية الباستيل المهاجمين بالنيران التي أردت العديد من الثوار قتلى. كان مظهر الدماء المتدفقة سببا في إشعال حماسة بقية الثوار وأكسبتهم رؤية الدم المراق جسارة، فأندفعوا عن بكرة أبيهم صوب الأبواب لمحاولة كسرها وسط انهمار رصاصات حامية السجن لمدة أربع ساعات. وأخيرا أقبلت فرقة الحرس الوطني الموالية للثوار بمدافعها فتغير الموقف وطلبت الحامية التسليم، ورفعت الحامية الراية البيضاء وأدارت الحامية فوهات المدافع إلى داخل القلعة أعلانا عن وقف إطلاق النار ورغيتهم في تسليم السجن، واشترطت قوات الحامية أن يسمح لهم بالانسحاب الآمن على أرواحهم، فصاح رجل ممن كانوا في طليعة الثوار "أنزلو الجسور...لن نمسكم بأذى" ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير إلى السجن تحرر القلعة

وتسقط رمز الطغيان، بعد ان ذهب نتيجة المعارك الضاريو حول السجن ٩٨ من الثوار وواحد من قوات الحامية، وألقي القبض على دي لوني رئيس الحامية الذي سيق إلى دار بلدية "دي فيل" حيث قتله الثوار.

كان سقوط الباستيل حدثا فاصلا في فرنسا فعلى الرغم من ان السجن لم يكن يحتجز داخله إلا سبعة سجناء ليس من ضمنهم شخصية سياسية واحدة، إلا أن رمزية سقوط هذا السجن الكريه الذي يمثل رمز السلطة المطلقة كان كافيا لإعال نفوس الثوار حماسة وثقة في قوتهم، فالثورة الآن قد أعلنت بشكل رسمي وتحدي الملك وسلطاته بشكل علني قد تم، وإنتظار الإنتقام من قبل الملك ورجال البلاط أصبح حقيقة، لذلك لم يعد يشغل بال الثوار، بعد أن فرغوا من احتفالاتهم بانتصارهم المدوي، إلا الدفاع عن أنفسم ودرأ الضربة القادمة لا محالة من قبل الملك، فأخذوا يفكرون في وسائل الدفاع عن أنفسهم فقضوا ليلتهم في تحصين المدينة بأن خلعوا الأفاريز وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق واستكثروا من الحراب والرصاص. أما النساء فكانت مهمتهن حمل الحصى والحجارة إلى سطوح المنازل تمهيدا لأمطارها على رؤوس الجند عند سيرهم في الطرقات، وهكذا بات الثوار ليلتهم الأولى في الاستعداد لما بعده من أيام، بعد أن حفروا ما فعلوه في كتب التاريخ فما تزال فرنسا إلى اليوم تحتفل به بإعتباره اليوم الوطني لفرنسا يوم لخص الحرية والعزة والكرامة.

وتحرك الملك

على الجانب الأخر تلقى الملك وأعوانه، والملكة والنبلاء، خبر سقوط سجن الباستيل بمزيد من الفزع والدهشة الناتجة عن خطأ في تقدير قوة الثوار، فقد كان يظن أن الثوار ليسوا على درجة كبيرة من الوعي والقدرة على تنظيم أنفسهم، وأن الحركة الثورية لن تتجاوز مجرد المظاهرات ولن تدخل في دور العصيان المسلح. لذلك جاءت تحركات الملك - بناء على املاءات ت الملكة- في إطار قمع هذه التحركات، لذلك قرر حل الجمعية الوطنية، وأصدر أوامره بقمع الثوار.

قرر أعضاء الجمعية الوطنية عقد جلسة طارئة لمواجهة ما جرى في سجن الباستيل وقرار الملك بحل الجمعية، وفي هذا الإطار تقرر تشكيل وفد لمراجعة الملك

في قراراته. لكن المفاجاة كانت في وصول الملك لويس السادس عشر إلى مقر الجمعية بدون حراسة، وخاطب الملك الاعضاء قائلا أنه يثق في حكمة تصرفاتهم وأنه اعتمادا على حبهم وولائهم له قد أمر بسحب الجند من باريس وفرساي وأنه يعول على اخلاصهم في تلافي الحالة التي وصلت إليها باريس، فقوبلت كلمته بالارتياح التام والتصفيق، وقامت الجمعية بكامل هيئتها فأحاطت بعربة الملك وشيعته إلى قصره وسط التهليل والهتاف، وظهرت بوادر للخروج من نفق الأزمة بعد أن عاد الملك وصرح بأنه قد عزم على استعادة وزير الشعب المعزول نكر لمناصبه وصلاحياته، وطلب إلى المجلس أن يتوسط بينه وبين الوزير وأن يعمل على إعادة حسن التفاهم بينه وبين الشعب.

تلقت جموع الشعب في باريس تلك الأخبار بمزيد من الترحيب والحماسة واتفقت الكلمة على أن ينصب "بايي" رئيس الجمعية الوطنية محافظا لمدينة باريس، وأن يتولى الجنرال لافاييت رئاسة الحرس الوطني.

وسافر الملك من فرساي إلى باريس في ١٧ يوليو ليعزز بظهوره شخصيا روح التفاهم الجديد بين الحكومة والشعب، ووافق على تعيين بايي ولافاييت في منصبهما نزولا على رغبة الشعب، في حين رأى الثوار اكراما للملك أن يضموا لون الملكية الأبيض إلى لونيهما الأزرق والأحمر فتألفت من ذلك الراية الفرنسية المعروفة حتى الآن كعلم فرنسي مميز. وكتب السفير الانجليزي في باريس لحكومة بلاده:"يستطيع المرء الآن أن يقول إن الملك قد أصبح ملكا دستوريا، وإن فرنسا من هذه اللحظة قد أصبحت بلدا متحررا".

حزب فلول النظام

بذلك تكون محاولة الملكة والبلاط بالالتفاف على الثورة واجهاضها قد فشلت بانحياز الملك للثوار، ما أدى إلى تشتييت حزب اعداء الثورة وتحولهم إلى فلول فرت من البلاد فقد فر الكثير منهم إلى إيطاليا، حيث بدأت تتشكل هناك تتجمع قوى النبلاء والملكية المنهارة فقد كان من ضمن الفارين دي ارتوس (الملك شارلز العاشر فيما)، وولديه الأمير دي كوندي والأمير دي كونتي، وعدد من كبار الإقطاعيين ورجال

البلاط المرتبطين بالنظام القديم، واستقروا في مدينة تورين الإيطالية، وهناك بدأ كالون بصفته وكيلا للكونت دي ارتوس والأمير دي كوندي، بالتخطيط لحرب أهلية داخل المملكة والتحريض لتشكيل ائتلاف أوروبي ضد فرنسا، وهو ما سيكون له تداعياته القريبة على المشهد الفرنسي.

في الوقت الذي استقبلت شوارع باريس عودة "نكر" استقبال الفاتحين وسط فرحة الانتصار الأولى للثوار، وأكتشف حين وصوله أن الجماهير قد أصبحت صعبة المراس وأن الدم عرف طريقة لباريس على يد رجال الملك والثوار، لذلك رغب نكر في إنهاء حمامات الدم قبل أن تندلع، فكان أول قرار له هو المطالبة بإصدار قرار عفو عام يصوت عليه مجموع ناخبي باريس، رغم تشكيل الجمعية الوطنية لمحكمة في شاتليت إلا أنهم قرروا إلغاءها لأن الجموع الثائرة رفضت فكرة المحاكمات وإصدار عفو لقاتلي الثوار، وكان هذا نذيرا بأن النخبة قد بدأت تفقد السيطرة على جمهور الشعب الفرنسي.

كانت القوى الشعبية تكتسب زخما في القرى الفرنسية التي وصلتها أصداء ما جرى في العاصمة، فتقرر تشكيل مجالس بلدية موازية لبلدية باريس لبناء الحكومة المدنية المنتخبة وتشكيل حرس وطني لحماية مدن الأقاليم، فيما شهدت الأقاليم الإقطاعية سلسلة من الهجمات على قصور النبلاء بعد اشاعات بأن النبلاء يريدون إخماد الثورة، وهي في حقيقة الأمر لم تكن أكثر من ذرائع لينتقم الفلاحين من الإقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب وساقوهم من الهوان ألوانا، وذلك خلال انتشار "الرعب الهائل" في المناطق الريفية في الفترة الممتدة من ٢٠ يوليو إلى ٥ أغسطس. وفي خلال اسابيع قليلة فقدت الحكومة الملكية سيطرتها على الأقاليم وأخذت المدن الفرنسية تتلقى أوامرها في الشئون المهمة من الجمعية التأسيسية (الجمعية الوطنية) في باريس دون غيرها.

لذلك لم يجد الإقطاعيون إلا النزول عن بعض امتيازاتهم لوقف موجة العنف ضدهم، ففي مساء يوم ٤ أغسطس ١٧٨٩م وقف الإقطاعيون يتنازلون تباعا عن امتيازاتهم وحقوقهم الإقطاعية الجائرة، وتدفقت التنازلات بسرعة تعذر معها على

سكرتيري الجلسة ملاحقتها. وبمقتضى هذه التنازلات تم إلغاء الحقوق الإقطاعية الشخصية، وإلغاء القضاء الإقطاعي، وتحويل ضريبة العشور إلى ضريبة جمركية، والسماح للفلاح بالتخلص من الواجبات الإقطاعية مقابل مبلغ من المال، وملخص ما جرى يومئذ أن الفلاح الفرنسي قد حصل على حريته الضائعة منذ ألف عام.

وكانت فرنسا تستعد حقيقة إلى الدخول إلى أجواء الثورة المشتعلة، فكل ما كان يجري في المدن والقرى مجرد مناوشات بين نظامين متنافرين لايمكن التوفيق بينهما، يعبر كل منهما قوى إجتماعية وإقتصادية مختلفة، الثوار بما يحملوه من مبادئ لنظام جديد وبين نظام متعفن متشبث بتقاليد العصور الوسطى ويحمل وطنه إلى حافة الهاوية، فكان لابد من مواجهة حاسمة تنهي هذا الانقسام.

انتصار الثورة

حققت الثورة انتصارات أولية جعلت البعض يظن أن الثورة انتهت أو كادت، لكن الحقيقة أن فصول الثورة الكبرى لم تبدأ بعد، فكل ما جرى ان اعوان الملك والنبلاء قد تريثوا قليلا لالتقاط الانفاس من أجل جمع قواهم المتداعية والبحث عن حلفاء من أجل عكس عقارب الساعة وإعادة النظام الفرنسي إلى استبداده الذي ولى. في وقت كان الثوار منشغلون ببناء النظام الجديد القائم على المساواة والحد من نفوذ الملك.

قامت الجمعية الوطنية التأسيسية بتدشين إعلان "حقوق الإنسان والمواطن"، وفي ٢٦ أغسطس ١٧٨٩م اعتمد الإعلان في صفته النهائية، وقد حمل ملامح الطبقة البورجوازية التي أصدرته، كما حمل ملامح الظروف السياسية التي صدر فيها. فقد نص الإعلان على أن "الناس يولدون أحرارا ومتساوين في الحقوق، ويظلون كذلك". وأن "كل سلطة مصدرها الشعب وحده" بالإضافة إلى ذلك فقد اشتمل الإعلان على أهم المبادئ التي نادى بها فلاسفة الثورة: الحرية...المساواة...سيادة الأمة...فصل السلطات...الإدارة العامة". ولضمان تأييد الملك لويس السادس عشر تم تلقيبه بلقب "معيد الحرية إلى فرنسا".

كان إعلان حقوق الإنسان مقدمة –كمبادئ عامة- للدستور الذي أخذت الجمعية الوطنية التأسيسية في التشاور حول بنوده، وهو ما سبب الانقسام بين أعضاء الجمعية

حول صلاحيات الملك في إطار الدستور الجديد، وهو إختلاف انتصر فيه أصحاب الرأي الراديكالي فتم إعطاء الملك حق الفيتو المطلق على قرارات المجلس شريطة ألا يخول سلطة حل المجلس.

وعندما عرضت هذه القرارات على الملك ما كان منه إلا أن رفضها مع رفضه لإعلان حقوق الإنسان، وهو أمر أعاد الأزمة للصدارة من جديد حيث طالبت الجمعية بالاجماع الملك بأن يصدق على تلك المراسيم تصديقا واضحا. استدعى الملك جنوده للدفاع عنه في وقت راجت الإشاعات بأن البلاط يعد حملة منظمة للقضاء على الثورة ورجالها، خصوصا بعد أن وصلت إلى أسماع الثوار في باريس أن أجواء الحفلات الصاخبة التي كان يقيمها الملك لقادة الفرق الجديدة التي استدعاها، والتي رفع فيها الضباط أصواتهم بتحية الأسرة المالكة ومزقوا شعار الثورة ثلاثي الألوان.

مظاهرة النساء

بلغت الأوضاع في باريس درجة الغليان خصوصا مع وصول أزمة الخبز قمتها، وتصادف أن دخلت فتاة صغيرة في يوم ٥ أكتوبر أحد المخافر وتناولت منه طبلا وخرجت عدوا في الطرقات تضربه وهي تصيح "الخبز...الخبز" وفي لمح البصر تجمعت حولها نساء جائعات وتقدمن إلى مبنى المحافظة، فدخلنها وهن يصحن في طلب الخبز والسلاح، ثم كسرن الأبواب وتسلحن بما وجدوه في المخازن واتجهن صوب قصر فرساي رافعات شكواهن إلى الملك. رفض حرس الملك تقدم مظاهرة النساء فاعترضوها. باتت الثائرات ومن انضم إليهن من الثائرين ليلتهم أمام قصر فرساي. وعندما بدات الساعات الأولى لنهار اليوم التالي أنسل بعض المتظاهرين إلى داخل القصر ما أدى إلى اندلاع المواجهات بين الثوار وحرس القصر، وأوغل المتظاهرون في أجنحة القصر حتى بلغوا غرفة الملكة فلم يجدوها بها فصبوا غضبهم على فراشها وأثخنوه طعنا وتمزيقا وكادوا يصلون إلى الملكة نفسها لولا أنها أنذرت قبل ذلك بقليل ففرت إلى غرفة الملك وليس عليها من الثياب إلا ما يسترها.

إخرج الثوار من القصر بالقوة، إلا أنهم تجمعوا أسفل شرفة الملك صائحين "نريد الملك بباريس"، فخرج لهم الملك وحياهم ونجح لافاييت -رئيس الحرس الوطني- في

استيعاب ثورة المتواجدين أمام قصر فرساي.

انتقل الملك إلى باريس في اليوم التالي مباشرة (٦أكتوبر)، لتشهد البلاد بعدها نوعا من الهدوء الحذر بعد ان أصبح الملك في قبضة الثوار حبيس رهين إرادتهم، لذلك فكر الملك في عقد تحالف مع ميرابو أحد أشهر رجال الثورة، الذي كان يرى ضرورة الإبقاء على الملك كرمز للبلاد، بذلك اتفقت غايته مع غاية الملك، وانتهت المكاتبات السرية بينهما في مايو ١٧٩٠م بأن يدفع الملك لميرابو ستة الاف فرنك شهريا، ويتولى سداد جميع ديونه البالغة ٢٠٠ ألف فرنك، نظير تعهد ميرابو بأن يدافع عن الملك ويطلعه على مجرى الحوادث ويمده بإرشاده ونصحه.

ورغم اخلاص ميرابو في نصائحه للملك إلا أن تدخل الملكة المتسلطة ورجال البلاط الجهلاء حال بين وضع نصائح ميرابو موضع التنفيذ، فقد كان من رأي ميرابو الاعتماد على رضاء الشعب وأن يخرج الملك من باريس المضطربة جهارا ولا يفر من البلاد لأن هذا سيسيء إلى مركزه وأن يعلن عن تضحيته بكل غالي من أجل انقاذ مركز البلاد المالي، لكن هيهات فالملكة ماريا انطونيت وضعت مخططها وعلى الملك الطاعة والتنفيذ، فقد خططت مع رجال البلاط وبقايا الإقطاعيين على ضرورة الملك متسترا بظلمة السماء إلى الحدود الشرقية لفرنسا حيث يلتحق بالهاربين من النبلاء والأمراء مع التماس معونة الملكيات الأوروبية لقمع الثورة.

في ظل صراع الرأيين، مات ميرابو وبموته أنطفئ آخر بصيص من نور الأمل في التوفيق بين الملك وشعبه. وانهارت بموته عزيمة الملك ولم يبق أمامه إلا أن يعود إلى رأي زوجته ويقبل الدخول في تلك المغامرة الخطرة التي كانت تدفعه إليها، ولم تكن تعلم أنها تسوق زوجها إلى حتفه.

فرار الملك

وفي مساء ٢٠ يونيو ١٧٩١م خرج أفراد الأسرة المالكة فرادة تباعا وهم متخفين حتى لا يلحظ أحد محاولة هروبهم، ونتيجة لتهور الملك كشف أمره، فبعد أن خرج من باريس واتجه صوب مدينة فردان القريبة من باريس، حيث كانت تنتظره مجموعة من الخيول التي ستقله إلى حدود فرنسا، إلا أنه قلل من حذره وظهر بصورة علنية، فلمحه

احد الثوار الذي أبلغ بقية الثوار بالخبر، فما كان إلا برهة من الوقت واحاط الثوار بالملك وأرغموه على العودة إلى باريس. لتسود حالة من الفوضى والقلق أجواء باريس حول مصير الملك الذي فقد تعاطف الغالبية العظمى من الشعب بعد محاولة هروبه الخرقاء، ومن الطريف ان نساء باريس كن يجادلن الرجال ويصرحن بأنهن سيقمن على حراسة أبواب المدينة قائلات: "النساء هن من جئن بالملك إلى باريس والرجال هم من ضيعوه".

وكانت الروح السائدة وقتذاك كراهية ملوك عامة ولويس السادس عشر خاصة، لذلك ما ان وصلت انباء فشل محاولة هربه حتى اندفع الثوار لتحطيم تماثيله في الميادين وكسرت عند الباعة وكانت تمحى كلمات "ملك" و"ملكة" و"ملكي" و"بوربون" و"لويس" و"بلاط" من كل ما نقشت عليه سواء في ذلك الصور والألواح والحوانيت والمخازن.

واختلفت الاراء حول مصير الملك بعد ألقاء القبض عليه، فأما الجمعية التأسيسية فقد قررت إيقافه مؤقتا حتى يتم وضع الدستور فيقدم له ليقسم على احترامه وطاعته. لم يعجب هذا الرأي المتطرفين (المعروفين باسم اليعاقبة) الذين رأوا أن الملك تخلى عن العرش بمحاولته الفرار وترك البلاد، وأنه لابد من إقامة حكومة جمهورية يتولى الشعب أمرها.

وفي ٣سبتمبر ١٧٩١م قدم الدستور إلى الملك للموافقة عليه، فأصدره في ١٤ من الشهر ذاته، وحلت الجمعية الوطنية نفسها في ٣٠ سبتمبر وانعقدت الجمعية التشريعية في اليوم التالي أي في أول أكتوبر سنة ١٧٩١م.

ونشأ من وضع الدستور والاختلاف حول سلطات الملك ثلاثة أحزاب أو تيارات رئيسية: حزب اليمين،وهو حزب الدستوريين الذين رغبوا في بقاء الملك شريطة اعترافه بوضعه القانوني الجديد. حزب اليسار، وهو حزب الجمهوريين الذين اردوا قلب نظام الحكم وتأسيس الجمهورية وهم أصحاب الخط الأكثر تطرفا. وحزب الوسط الذي التزم اصحابه بالبقاء على الحياد بين الطرفين.

وطن في خطر

شعرت النظم الرجعية الملكية في أوروبا بالخوف من مبادئ الثورة الفرنسية التي تخفي خلفها أحلام فرنسا في أن تعود قوة مهيمنة في أوروبا، لذلك لم يكن غريبا ان تتحالف تلك الدول من أجل قمع الثورة و"الدفاع عن حق الملوك الإلهي في الحكم". ولم يكن المجتمع الفرنسي بأقل رغبة في الحرب فالثورة أيقظت الروح القومية لديهم وأخذ الثوار بنظرية الحدود الطبيعية- التاريخية لفرنسا، في حين رغب الثوار في نشر الثورة بمبادئها الإنسانية على أوروبا كلها بإعتبارا ثورة جاءت لتخلص الإنسان أي إنسان من العبودية.

لكل ذلك تجمعت نذر الحرب من جديد في سماء أوروبا، ولم يتأخر البحث عن سبب لإعلان الحرب كثيرا، فكان القبض على الملك لويس السادس عشر سببا كافيا من وجهة نظر إمبراطور النمسا (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) وملك بروسيا لإعلان نيتهما في أغسطس ١٧٩١م حماية الملك وقمع الثورة، وهو ما اعلن عنه صراحة في ما عرف بقرار "بلنتز". وأستغلت القوى الملكية وجود أحزاب فرنسية مناوءة للثورة وتحالفت معها لإكساب تدخلها في الشأن الفرنسي طابع شرعي، وهو أمر أصاب الثوار في فرنسا بالقلق فالجيش الفرنسي قد انحل نتيجة هجرة كبار الضباط من النبلاء لذلك أصدرت الجمعية الوطنية في ١١ يوليو ١٧٩٢م تقول: "أيها المواطنون...إن الوطن في خطر"، فهرع المتطوعون كبديل لتكوين جيش الثورة فتم تشكيل فرق عسكرية من أبناء الثورة.

ورغم التحذيرات المتبادلة بين الفريقين حول خطورة الإقدام على الحرب، إلا أن فرنسا الثورة أجبرت على مهاجمة بلجيكا كخطوة تأمينية لحدودها، إلا أن الهزائم ألحقت بجيش الثورة الفرنسية تباعا، وأصبح الوضع خطيرا ينذر بإنهيار تام قد يؤدي إلى عودة الملكية من جديد على أسنة الرماح.

جاءت النجدة للثوار من حيث لم يحتسبوا، فظهور روسيا كدولة أوروبية ضخمة تتجه غربا صوب قلب أوروبا أثار رعب الأمة الالمانية ممثلة في قيادتها النمسا وبروسيا، وهو أمر أجبر قائد القوى المتحالفة "برونسفيك" على الاتفاق مع قائد جيش الثورة "ديموريه" على الانسحاب دون قتال.ولذلك عدت معركة "فالمي" التي

انسحبت فيها قوى التحالف فاصلة في تاريخ الثورة الفرنسية فقد بثت هذه الموقعة الصغيرة روح الثقة بالنفس لدي الثوار وأعطتهم برهة من الوقت لتأمين فرنسا.

إعدام الملك

أرسل دوق برنزويك قائد قوات جيوش التحالف انذارا شديد اللهجة للثوار بعدم مس الملك والملكة بأي سوء وحذرهم بالويلات التي قد تصيبهم جراء إصابة الملك. كان هذا الانذار بمثابة الكارثة على الملك وسمعته فقد اعتبر الثوار أن مجرد تأييد الملك خيانة، وارتبطت صورة الملك في الأذهان بصورة الخائن المتعاون مع القوى الغازية، واتفقت الاحزاب على ضرورة التخلص من الملك بأي وسيلة ممكنة. وبالفعل هاجم الثوار القصر الملكي ودارت معركة حامية الوطيس بين الثوار وحرس القصر انتهت بانتصار الثوار، في حين انسحب الملك إلى مقر الجمعية حيث تقرر توقيفه حتى ينظر في أمره، ونقل الملك وأسرته إلى حصن "التامبل" حييث تم التحفظ عليه في أحد أبراج الحصن. وأندفع الثوار صوب الإقطاعيين فقتلوا منهم أكثر من ١٥٠٠ شخص في سبتمبر ١٧٩٢م، وهي المعروفة بـ"مذابح سبتمبر" وأعلن عن قيام المؤتمر الوطني في ٢٠ سبتمبر بديلا عن الجمعية التأسيسية، ليكون أول قرار له هو إلغاء الملكية في ٢١ سبتمبر، وإعلان الجمهورية في ٢٥ من الشهر ذاته. بعدها تقرر إعدام الملك بناء على عريضة اتهام تم اعلانه بها في ١١ ديسمبر، وتم استدعاءه إلى قاعة المؤتمر الوطني للدفاع عن نفسه، وكان الملك يجيب عن هذه التهم تارة بانكارها وتارة بنسبتها إلى وزراءه وثالثة باقرارها مستندا في تبريرها إلى الدستور. إلا أن قرار الإعدام قد صدر نتيجة لأعمال الإرهاب التي مورست على الاعضاء، وقرر إعدام الملك في ١١ يناير ١٧٩٣م بتهمة الخيانة ومحاربة الأمة، وتقرر أن يكون تنفيذ الحكم في ٢١ من الشهر ذاته.

وجاء اليوم الموعد ووصل موكب الملك إلى ساحة ميدان الثورة المحتشدة بالجماهير الثائرة في العاشرة صباحا فنزل من العربة وصعد سلم المقصلة بقدم ثابتة وأحنى رأسه ليباركه القس فوضع عليه يده قائلا: "اصعد يا ابن القديس لويس إلى

السماء"، ثم حاول الملك بعد ذلك أن يخاطب الناس فتوجه إليهم قائلا: "إني برئ وأسال الله أن لاتقع التبعة في دمي على رأس فرنسا..." ولكن ضاعت بقية كلامه وسط قرع الطبول واقتاده الجلادون إلى حد السكين. وفي الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة رفع الجلاد الرأس المقطوع للجماهير فهتفوا بصوت واحد "فلتحيا الجمهورية". فيما لقت الملكة حتفها بنفس الطريقة في ٢١ يناير ١٧٩٣م ونفذ الحكم في ساحة الكونكورد الشهير، بعد أن رمتها الجماهير الغاضبة بكل ما طالته أيديهم، فماتت نتيجة لأفعالها الخرقاء التي أفقدت زوجها من قبل تاجه ورأسه. وكانت نهاية ماري انطونيت عبرة لمن يعتبر، فلم تكن ترتدي إلا ثوبين باليين أكل عليهم الزمن وشرب أحدهما أسود و الآخر أبيض، وهي الملكة التي عرفت بأناقتها لدرجة أن أميرات أوروبا كن يحسدن كلابها على ما تخلعه عليها من الحلي والثياب الفاخرة، وبعد وفاتها ظلت جثتها ملقاه في العراء لمدة أسبوعين.

التحالف الدولي

هذه الأحداث الجسام المتلاحقة في فرنسا كان لها اصداء في أوروبا كلها، فقد كان إعدام الملك وإنهاء الملكية صدمة كبرى في عواصم أوروبا المختلفة، التي لم تتردد في اظهار رفضها لطريقة التعامل مع الملك لويس السادس عشر، فأعلن الحداد في انجلترا وقطع الملك العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا، وهو ما تكرر في أسبانيا وهولندا، فكان رد فرنسا الثورة هو اعلان الحرب على انجلترا وهولندا في أول فبراير، وفي ٧ مارس على اسبانيا، واضم للتحالف المناهض لفرنسا بابا روما الذي هاله ضياع نفوذ رجال الدين في فرنسا، وتبعته كل من المدن الإيطالية الكبرى (نابولي والبندقية وفلورنسا) ثم الإمارات الألمانية، بالإضافة إلى النمسا وبروسيا وقد لأعلنا عدائهما للثورة منذ اليوم الأول، بذلك يكون التحالف الدولي الاول الذي انتظمت فيه جميع القوى الأوروبية الكبرى ضد فرنسا قد تأسس بغرض واحد وهو الانقضاض على الثورة والقضاء عليها ثم تقسيم الإمبراطورية الفرنسية على قوى التحالف.

عهد الإرهاب

كان على رأس المتطرفين اليعاقبة روبسبير الذي قاد مظاهرة حاشدة لإسقاط

الملك والملكية في ١٧ يوليو سنة ١٧٩٠م، التي تصدى لها قائد الحرس الوطني لافاييت وأصدر أوامره باطلاق النيران على المتظاهرين فسقط منهم نحو مائتين ما بين قتيل وجريح، وهو أمر أثر على سمعة لافاييت وتيار الاعتدال الذي يمثله، وأعطى فرصة ذهبية لتيار التطرف للتشهير بمخالفيه. منذ ذلك الوقت وروبسبير يبني شهرته ومجده السياسي ببطء لكن في ثبات.

وكان روبسبير خليفة مارا رئيس اليعاقبة الذي بدأ عصر الإرهاب، الذي بدأ في يونو سنة ١٧٩٣م حتى يوليو عام ١٧٩٤م من خلال لجنة الأمن العام، التي سيطر عليها روبسبير تماما وأصدرت قانونا سيء السمعة عرف بـ"قانون الاتهام" كان يعاقب على مجرد الاشتباه والشك والذي تأسست على خلفيته "محكمة الثورة" التي كانت تأخذ الناس بالشبهات. وبدأت محاكمة كل من له صلة من قريب أو بعيد بالثورة، فقد أعدم دوق أورليان وهو الرجل المعروف بولاءه للثورة منذ أيامها الأولى، بل كان أحد أهم المحركين للثورة والداعمين لها، وأصبحت تهمة "التآمر" تهمة تلحق بكل ممن يشك في ولاءه للثورة أو لايبدي حماسة كافية لها، وبدأت الثورة تأكل أبنائها الواحد تلو الأخر، فسيق أعضاء حزب الملكية الدستورية إلى المقصلة كما سيق أعضاء حزب الجيروندبين إلى المقصلة وتقدمتهم زعيمة الجيرندبين "مدام رولان" التي قالت جملتها الشهيرة عندما رأت تمثال الحرية "أه أيتها الحرية، كم من الجرائم ترتكب باسمكِ الكريم".

تخلص روبسبير من زعماء الارهاب امثال دانتون بتقديمه إلى المقصلة فخلى له الجو، وسيطر على الأجواء السياسية بشكل مطلق في باريس فنصبت المقاصل في جميع ميادين باريس وسيق من سموا باعداء الثورة بأوامر من روبسبير إلى المقصلة، فتم إعدام حوالي ستة آلاف شخص في ستة أسابيع فقط، وخلال تسعة أشهر حكم رسميا على ١٦ ألف شخص بالموت. إلا أن الجميع تحسس رقابهم خوفا من روبسبير واتهاماته التي يوزعها يمينا ويسارا، لذلك لم يكن غريبا أن يتفق الجميع على ضرورة التخلص من روبسبير، فتم القبض عليه وأجريت له محاكمة صورية كتلك التي كان يجريها لخصومه وتقرر إعدامه ونفذ القرار يوم ٢٨ يوليو ١٧٩٤م. بمقتل روبسبير

انتهى عصر الارهاب وعادت الثورة سيرتها الأولى وصححت مسارها من جديد.

دكتاتورية الخلاص

نتيجة لهزائم جيوش الثورة وقرب دخول البلاد في مجاعة نتيجة لحصار الاعداء البري والبحري، تم تشكيل حكومة "لجنة الخلاص العام" بسلطات دكتاتورية من أجل انتشال البلاد من المأزق الحاد الذي تواجهه، وتم اسناد مهمة وضع الخطط الحربية لـ "كارنو".

ساعدت الظروف الدولية هذه الحكومة على العمل فبروسيا والنمسا في جبهة الشرق قد دبت بينهما روح الخلاف، كذلك بين القوات البروسية والقوات الانجليزية، وهو ما أدى إلى انقسامات واضحة في جبهة التحالف قد تصدعت فتمكنت جيوش الثورة من حصد الانتصارات هنا وهناك فقد دخلت جيوش فرنسا بلجيكا في يوليو ١٧٩٤م ثم هولندا في يناير ١٧٩٥م، كما استطاعت تثبيت أقدامها في أيطاليا وألمانيا. بذلك تكون الثورة الفرنسية قد خرجت منتصرة مشرقة تسطع بمبادئها على سماء أوروبا كلها بعد فشل التحالف الدولي الأول في تحقيق أي انتصار حقيقي على الثورة التي تمددت الآن وأصبح لها أنصار في الاراضي المنخفضة وإيطاليا وألمانيا.

وعندما تسلمت حكومة الإرادة الحكم في اكتوبر ١٧٩٥م، أحيت مخطط غزو النمسا وتقدمت ثلاثة جيوش فرنسية صوب النمسا، إلا أن الجيشين الأولين تعرضا للهزيمة ثم الانسحاب، وبقت العيون مسلطة على الجيش الثالث والأخير الذي حمل آمال الفرنسيين في تحقيق انتصار من اي نوع. كان قائد هذا الجيش هو القائد الشاب بونابرت (نابليون الأول فيما بعد) الذي استطاع الانتصار على النمساويين والإيطاليين والباباوية جميعا واستطاع اقتطاع شمال ايطاليا بالكامل لصالح فرنسا وأجبر البابا بيوس السادس عدو الثورة على دفع جميع تكاليف الحرب الطائلة ووقع معاهدة مع النمسا اعترفت فيها بانتصارات فرنسا واملاكها الجديدة.

لم يعد هناك من عدو أمام فرنسا الثورة إلا انجلترا التي كان غزوها مباشرة صعب نتيجة لتحصنها بالجغرافيا المدعمة بأسطول هو الأقوى في العالم، لذلك جاءت

فكرة غزو مصر لتكوين قاعدة متقدمة صوب الشرق تسيطر على طرق التجارة العالمية وتضايق انجلترا في كبرى مستعمراتها الهند وهي المهمة التي أوكلت إلى قائد القوات المنتصر في إيطاليا بونابرت الذي أبحر على رأس أسطول غازيا الشرق في سنة ١٧٩٨م، وقبل أن يغادر بونابرت إيطاليا دخل روما وأذل البابا الروماني بعد أن أنشأ الجمهورية الرومانية في وسط إيطاليا، وهو التحرك الذي أغضب الأمم الكاثوليكية.

كانت إنتصارات فرنسا المدوية في إيطاليا وألمانيا وعلى البابوية، سببا كافيا لإعادة تشكيل التحالف الدولي من جديد ضد أوروبا، الذي ضم إنجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا بل والدولة العثمانية نفسها التي ساءها الغزو الفرنسي لمصر.

تأزمت الأمور على حكومة الثورة فتم استدعاء بونابرت من مصر لمواجهة جيوش التحالف، الذي وصل إلى فرنسا في يوم ٩ نوفمبر ١٧٩٩م، الذي قاد إنقلاب وحركة تطهير أدت إلى تأسيس حكومة القنصلية مؤلفة من سييس وروجيه ديكو وبونابرت. وحلف القناصل الثلاثة يمين الولاء أمام مجلس الشيوخ للجمهورية التي لاتتجزأ وللحرية والمساواة وللنظام النيابي. على أن يكون بونابرت قنصل أول له حق إعلان الحرب وتوقيع المعاهدات. تصدر بونابرت المشهد وبدأ يمهد لارتقائه السلطة بصورة منفردة حيث أُقصى منافسيه وأعلن نفسه امبراطورا تحت اسم نابليون الأول وسيطر على المشهد الأوروبي حتى عام ١٨١٥م.

بذلك تكون صفحة الثور الفرنسية قد انقضت بعد أن هزت ضمير أوربا والعالم بأسره وفتحت آفاق أخرى أمام الإنسانية لترتقي وسط قيم ومبادئ أعلى تعلي من شأن الإنسان واحترامه لذاته، فقد حررت أعناق الناس من أغلال السخرة، وإرهاق الضرائب الفادحة، ووقفت حدا فاصلا بين عهد قديم كان كل شيء فيه ملكا لبعض أفراد لا يتجاوزن ٢% من مجمل الشعب، وعهد جديد أصبح كل شيء فيه ملكا لمجموع الأمة، لقد غيرت تلك الأيام الطويلة من طبيعة الفرنسيين فقد تذوقوا طعم الحرية عرفوا معنى أن يتساوى الجميع في الحقوق والواجبات، وأصبح لأول مرة التقدم إلى المناصب من حق جميع أفراد الشعب الفرنسي، فقد اصبحت الطفاءة لا

الوراثة هي العامل الفصل في سباق الحياة العامة الفرنسية. لذلك لم يكن غريبا رغم فشل الثورة الظاهري بعد عودة الملكية من جديد أن يثور الشعب على الملكية في عام ١٨٤٨م ويطيح بها من جديد، ولا يهدأ ولا يقر إلا بعد إقرار النظام الجمهوري العريق، الذي ألهم شعوب العالم أجمع، فلم تعد الثورات في جنبات العالم تمر مرور الكرام ففي كل ثورة جزء من الثورة الفرنسية باخطاءها وابتكارتها، بانتصارتها وهزائمها، لكنها بقت رغم كل شيء الأنموذج الذي يحتذى. وأصبحت وثيقة "حقوق الإنسان" نبراسا يهدي الأمم في دروب البحث عن الحرية وعلى أصولها ترتكز اليوم فعلا دساتير الأمم الحرة في أوروبا والعالم، بل أن وثيقة منظمة الأمم المتحدة قامت على مبادئ هذه الوثيقة.

obeikandl.com

obeikandl.com